صفحة مطوية

من حياة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله

بقلم الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ السابق بدار العلوم

كان المرحوم الإمام منفياً فى بيروت كما يعلم جميع الناس ، وقد اتصل وهو فى بيروت برجل أفغانى يقال له ميرزا باقر (١) . وقد كان ذلك الرجل بارعا فى الإنكليزية ، واستخدم فى السلك السياسى ، وتعرف برجال كثيرين فى أوربة من المستشرقين وغيرهم .

فجاء ميرزا باقر إلى الشيخ محمد عبده وقال له : إن الله تعالى قد آتاك عقلا راجحا ، وذهنا ثاقبا ، وقوة فى الحجة ، فما أعددت من الجواب إذا سألك الله تعالى عن هباته وأفضاله عليك ، فيم صرفتها ؟ وما الذى عملته لخدمة دينى الذى ارتضيته ، وأنت اليوم فى كل طرفة عين تبعد عن أيام الدنيا وتقرب من أيام الآخرة ؟

فقال له الأستاذ : وماذا عسى أن أعمل ، وأنا غريب طريد شريد ؟ فقال له ميرزا باقر : إنك تقدر أن تعمل عملا عظيما . فإنك يمكنك أن تدعو أوربة إلى الإسلام ، فقال له : ومن يسمع لى ، وأوربة عن الدين فى عمى ، لا يطلبون حقا ، ولا يبطلون باطلا ، بل هم فى تعصب مخزضد الإسلام . فقال له ميرزا باقر : فى أوربة قوم عقلاء قد أعتقوا أنفسهم من التعصب ، ولو ظهر لهم الهدى لصدعوا به بدون مبالاة . أعرف منهم اسحق تيلر ، فلو كاتبته وطلبت مساجلته فى بيان الحق من الشبه

---

(١) لميرزا باقر هذا ذكر فى الجزء الأول من تاريخ المرحوم الإمام ، للمرحوم السيد رشيد رضا .

التى عنده على الإسلام لإزالتها وتوضيح الحق فيها لما تأخر عن ذلك ، ولسر سروراً عظيما . فقال الشيخ : إنى لا أعرف من الإنكليزية لاقليلا ولا كثيراً — فقال له ميرزا باقر : إنى أنقل ماتكتبه بالعربية إلى الإنكليزية ، وترسله به إليه . فاذا جاء كتابه بالإنكليزية نقلته إليك بالعربية .

فكتب الشيخ إلى ذلك الرجل العالم المسيحى ، يذكر له ما سمعه عنه ؛ من العلم والعقل والاعتدال وعدم التعصب للباطل ، وأنه لذلك رغب فى مخاطبته ، ليعرض على الشيخ الشبه التى تعترضه فى سبيل الإسلام ليجيبه بالحق فيها فاذا اقتنع فالشيخ لا يطلب إليه إلا إذاعة ما اقتنع بأنه حق ، لتزول بذلك الجفوة بين أهل الدينين ، ولا يكون الإسلام عرضة لهجمات توجه إليه من المسيحيين بغير حق ، عن جهل أو تعصب .

جاء كتاب اسحاق تيلر مرحبا بهذه الفكرة ، شاكرا للأستاذ بدأه بالمراسلة قاطعا على نفسه عهدا أن يذيع ما اقتنع به ، ثم أورد إحدى الشبه فقال : إن الإسلام يقرر فى هذه المسألة كذا ، والمسيحية تقرر كذا ، وما ذهبت إليه المسيحية معقول بخلاف ماذهب إليه الإسلام .

فأجابه الأستاذ الإمام : بأن ما عزاه أو عزته كتب المسيحيين إلى الاسلام ليس منه فى قليل ولا كثير ، وإنما تسند إلى اسرائيليات وروايات خرافية ليست من القرآن ، وأن الذى قرره القرآن هو كذا ، وما عداه لايحمل على القرآن ، ولا يكون من الدين فى شىء ، وعندك الآية كذا من سورة كذا فيها ذلك صريحا ، وهكذا كان إسحاق تيلر يورد الشبه ، والأستاذ يردها بالدليل الواضح وصريح القرآن . حتى لم يبق للرجل شبهة ، وكلما فرغ من موضوع أجاب الرجل بأنه اقتنع . فلما لم يبق فى نفسه شىء طالبه الأستاذ الإمام بإعلان ما اقتنع به فلبى ذلك الطلب ، فماذا عمل ؟

جمع القساوسة ورتب ما دار بينه وبين الأستاذ الإمام ، وقام خطيباً بين القسس ، وبين لهم الشبه التى أوردها على الإسلام ، وما أجاب به الشيخ ؛ وسألهم ألكم اعتراض على ماجاء به حتى أستوفى البحث معه فيه ، أم تسلمون معى كما سلمت له ؟ وأشار إلى تلك الأوراق وقال لهم : من بقى فى نفسه شىء فليطلع على تلك

الأوراق . فقام بعضهم إلى المنضدة التى عليها الأوراق، ونظر فى بعضها . ثم قالوا له : إن هذه الأوراق كثيرة ، وإنك قطعت فى كتابتها والمخابرات بشأنها شهوراً ، فنرجو أن تضعها مدة كافية تحت تصرفنا للاطلاع عليها ، وإبداء الرأى فيها ، فأجابهم وقال لهم : ها هى تى هنا ، ولكم الاطلاع عليها فى الزمن الكافى .

خرج أولئك القسوس ، وقد أيقنوا أن هذه الأوراق ستحدث ضجة فى المسيحية ، خصوصاً ما لإسحاق تيلر من المكانة وقوة عارضته وبلاغته فى الخطابة ؛ فخلصوا نجيا ، وتم اتفاقهم على أن يعرضوا خطر المسألة على الملكة فكتوريا وأتبعوا العزم بالفعل ، وقابلوها على غير موعد معتذرين بأن ما دعاهم إلى طلب مقابلتها ، خطورة المسألة التى جاءوا فيها ، وهى أنه يوجد ببيروت من البلاد العثمانية شيخ مصرى يكتب كتابات توقع الفتنة فى العالم المسيحى ، وأن هذا الرجل خطر شديد على المسيحية ، وأنهم بتبليغها هذا الأمر نقلوا ما فى أعناقهم إلى عهدتها . فطمأنتهم ووعدتهم أن تهتم بهذا الأمر بنفسها ، ولم تلبث أن طلبت إلى السلطان عبد الحميد أن يكون على (التلفون) وقالت له : إن عندكم فى بيروت رجلا اسمه الشيخ محمد عبده المصرى ، وهذا الرجل خطر ، لأنه يفسد ما بين أهل دين الاسلام وأهل الدين المسيحى ، فيجب أن يحذر منه .

فأما السلطان عبد الحميد فخاطب والى بيروت وسأله : هل عندكم رجل مصرى اسمه الشيخ محمد عبده ؟ فقال له : نعم ، وأنا أعرفه ، وظاهر أمره الصلاح . فخاطب السلطان الغازى مختارا باشا (بالتلغراف) . فأنبأه بأنه لا يعرف هذا الرجل ، وأنه سيسأل عن شأنه .

لجأ الغازى مختار باشا إلى رجل من ثقاته ، يعرف فيه الصدق والإخلاص ، هو الشيخ على الليثى . فأثنى على الشيخ محمد عبده ودافع عنه . فأخبره الغازى بما أنبأه به السلطان عبد الحميد . فقال له : إن الأمر سهل ، تزور أفندينا الخديوى ، وتسأله العفو عنه ، والأمر باستقدامه إلى مصر . فاستحسن الغازى هذا الأمر ؛ وذهب إلى المرحوم الخديوى توفيق باشا واستعطفه على الشيخ محمد عبده ؛ فوعده بذلك . فقال له خير البر عاجله ؛ فلم يخرج الغازى من حضرة الخديوى إلا بعد أن أصدر أمره

بالسماح للشيخ بالعودة إلى مصر ، وأرسل « تلغرافا » الى بيروت باستقدامه .

عاد الغازى مختار باشا إلى سراى الاسماعيلية ، وأنبأ السلطان عبد الحميد بأن أمر الخديوى صدر بعودة الشيخ محمد عبده إلى مصر .

أما السلطان عبد الحميد فأرسل إلى والى بيروت تلغرافا بتسهيل ترحيل الشيخ وأن يخبره إذا صار الشيخ فى عرض البحر بإبحاره وباسم الباخرة التى هو فيها ، وموعد وصولها إلى القطر المصرى .

صدع الوالى بالأمر وأنبأ السلطان بذلك ؛ فأرسل السلطان تلغرافا إلى الملكة فيكتوريا ينبئها بأنه اهتم بما قالته له ؛ وسأل عن ذلك الرجل الذى أخبرته بشأنه فعلم الآن بأنه غير موجود فى بيروت ، وأنه الآن فى عرض البحر ذاهبا الى مصر على الباخرة (كذا) وأنه يصل إلى القطر المصرى فى ساعة كذا من يوم كذا .

ولعل الخطب الطنانة التى كان يخطبها القس اسحاق تيلر ويرسلها من منبر كنيسته مثنياً على الاسلام ساخطا على من يناوئونه كان أساسها تلك المحاورة التى كانت بينه وبين الإمام والتى كانت السبب فى عودته إلى مصر .

عبد الوهاب النجار